اسم الدرس : خطبة سورة التحريم

تصنيف الدرس : خطبة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وأصلي وأسلم على سيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم، بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح للأمة، فما ترك خيرا إلا ودلنا عليه وما ترك شرا إلا وحذرنا منه، فصلاة وسلاما دائمين من رب العالمين على أشرف المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) [ال عمران:١٠٢]

أما بعد، أحبتي في الله..

نكرر دائما وأبدا أن الله عز وجل لم يترك الخلق سدى، ولكن أنزل إليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل؛ ليكونوا على بينة من أمرهم، وليذكرهم بالغاية التي خلقوا من أجلها (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). [الذاريات:٥٦]

ثم بعد نزول الكتب وإرسال الرسل: (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ). [الأنفال:٤٢]

أحبتي في الله: اصطفى الله عز وجل لهذه الأمة خير الكتب القرآن الكريم، واصطفى لها خير الرسل محمدا صلى الله عليه وسلم. فمن تمسك بكتابه وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كان من الفائزين.

أحبتي في الله: اختار الله عز وجل لهذه الأمة دين الإسلام، ولكي يقوم هذا الدين بين الناس في المجتمعات، ولا يكون دينا فرديا خاصا بآحاد الناس لابد أن يقوم هذا الدين في المجتمعات، ونواة المجتمع واللبنة الأولى في المجتمع هي الأسرة المسلمة.

لذلك جاءت تعاليم كثيرة في الإسلام تحض على الاهتمام بالزوجة، وبالأولاد، وبتربية الأسرة والاهتمام بالأسرة. أمرنا الله عز وجل وحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من أن نُضيع الأمانة، فقال النبي صلى الله

عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[1]، وأمرنا الله عز وجل أن نقي أنفسنا وأهلينا النار، وحذرنا الله عز وجل أيضا من أن نُضيّع هذه الأمانة.

لذلك نجد اهتماما خاصا في القرآن بالأسرة المسلمة، وأن ضياع هذه الأسرة والتفريط في حق الأسرة وظلم الزوجة والأولاد –هذا الظلم لو انتشر– يؤدي إلى هلاك الأمة.

فالأمم هي مجموعة من اللبنات، فسقوط هذه اللبنة تلو اللبنة يؤدي إلى انهيار الأمم. لذلك الناظر في سورة الطلاق يجد أنها حذرت من أن يظلم الرجل زوجته، وأنه لا بد أن يكون قرار الطلاق عن روية وتفكير، لا قرار في حالة من السفه والغضب والطيش، لأن انتشار هذا الأمر يؤدي إلى هلاك المجتمعات.

لذلك نجد النصف الثاني من سورة الطلاق يتحدث عن انهيار وسقوط المجتمعات (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ) [الطلاق:٨]، فكما أن هناك عتو أحيانا يحدث في البيوت، فهناك أيضا عتو يحدث في المجتمعات؛ وفي كلتا الحالتين يؤدي هذا الأمر إلى انهيار الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.

إن الناظر في القرآن ولا سيما في الجزء الثامن والعشرين الذي ابتدأ بسورة المجادلة وانتهى بسورة التحريم – هذا الجزء الذي جاء بعد سورة الحديد التي حدثتنا عن أهمية القتال والجهاد لنصرة دين الله عز وجل– فنجد أن غالبا في القرآن يأتي بعد القتال أهمية الاهتمام بالأسرة والتربية؛ حتى لا ننشغل بكثرة الفتوحات وننسى الأصول واللبنات، فلا بد من التوازن. وكذلك نجد بعد سورة القتال سورة محمد وسورة الفتح، ثم تأتي سورة الحجرات للتركيز علي أهمية الآداب والأخلاق، حتى لا نُضيّع هذا الفتح بسوء أخلاقنا... فكذلك حتي لا نُضيع الفتح الذي حصّلناه في سورة الحديد، جاء هذا الجزء الذي يركز علي قضايا الأخلاق في الأسرة والمجتمع المسلم.

الناظر في هذا الجزء يتعجب من الاهتمام القرآني القوي بقضية المجتمع المسلم، وبتربية المجتمع المسلم، وأخلاق المجتمع المسلم. فنجد أن هذا الجزء بدأ بأسرة مسلمة وانتهى بأسرة، فسورة المجادلة تحدثت عن

[1] - [عن عبدالله بن عمر:] "كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، الإمامُ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أهْلِهِ وهو مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِها ومَسْئُولَةٌ عن رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ قالَ: - وحَسِبْتُ أنْ قدْ قالَ - والرَّجُلُ راعٍ في مالِ أبِيهِ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُمْ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ"
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٨٩٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٨٩٣) واللفظ له، ومسلم (١٨٢٩)

موقف خاص لزوجة مع زوجها، ولم يطلع أحد على هذا الموقف إلا الله سبحانه وتعالى قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) [المجادلة:١].

موقف عجيب لزوج وزوجته، ولم يطلع على هذا الحدث إلا الله...فقد قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، كان هذا الأمر في الجاهلية ويُسمى: الظهار، وقد جاء الإسلام لوضع الطلاق، وتشريع الطلاق بضوابط وشروط معينة؛ ثم نجد أن هذا الجزء أيضا ينتهي بسورة الطلاق ثم بسورة التحريم.

فهذا الجزء بدأ بكلام عن الأسرة المسلمة وانتهى بكلام عن الأسرة المسلمة، ثم في داخل الجزء تجد سورة الحشر، وسورة الممتحنة، وسورة الصف، والجمعة، والمنافقون: فكل هذه السور تتكلم عن أخلاق المسلمين مع بعضهم، وأهمية اجتماعهم، وخطورة التفريق بينهم ولا سيما عن طريق المنافقين.

لذلك جاءت سورة المنافقون بعد سورة الصف وسورة الجمعة... أي **أن المنافق سوف يحرص على هدم هذا الصف وفك هذا التجمع!**

لكن هذا التجمع -تَجَمع أهل الإسلام- لن يكون إلا على أساس سليم من أسر مسلمة بُنيت بناءً صحيحاً. لذلك جاء الاهتمام في البداية بالأسرة المسلمة، وفي الختام بالأسرة المسلمة.

في ختام هذا الجزء الثامن والعشرون -في سورة الطلاق ثم سورة التحريم- جاءت سورة الطلاق لتبين كيفية إنهاء العلاقة بطريقة شرعية لا بطريقة جاهلية كما في أول الجزء... يغضب منها، فيقول: أنت عليّ كظهر أمي، ثم لا تعرف الزوجة ماذا تفعل؟ هل تتركه مدة معينة ثم ينتهي الظهار أم ماذا يحدث؟... فكانت تصبح كالمعلقة، لذلك جاء الطلاق؛ فالطلاق يكون لعدة في طهر لم يجامعها فيه، ويكون بعد تفكير وروية وعقل واتزان، وهذا الطلاق يكون قرار حكيم بإنهاء هذه العلاقة التي أصبح هناك استحالة لإكمالها؛ لأنهما لم يعودا يحفظا حدود الله عز وجل...فوصل الأمر إلى أنهما –للأسف– لم يستطيعا أن يحفظا حدود الله عز وجل مع بعضهما البعض.

لذلك لما جاءت الزوجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب الطلاق من زوجها، قالت: يا رسول الله، إني أكره الكفر في الإسلام[٢]... أي: أنا خائفة أني لو استمريتُ في الزواج سأقع في أعمال خاطئة -وهنا

[٢] - [عن عبدالله بن عباس:] أنَّ امرأةَ ثابتِ بنِ قيسٍ أتتِ النَّبيَّ ﷺ، فقالَت: يا رسولَ اللَّهِ ! ثابتُ بنُ قيسٍ، أما إنِّي ما أعيبُ عليهِ في خُلُقٍ ولا دينٍ، ولَكِنِّي أكْرَهُ الكُفرَ في الإسلامِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: أترُدِّينَ عليهِ حديقتَهُ؟ قالَت: نعَم قالَ رسولُ اللَّهِ: اقبَلِ الحديقةَ وطلِّقها تَطليقةً الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح النسائي ٣٤٦٣ • صحيح

وصف الكفر لا يعني الخروج من الملة بل كفران العشير-...فهي تطلب الطلاق حتى لا تقع في غضب الله.

ثم بعد سورة الطلاق تأتي سورة التحريم التي يخبرنا الله عز وجل في بدايتها بعتاب لطيف للنبي – صلى الله عليه وسلم-: (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ) [التحريم:١]

التعامل مع الزوجة نعم يكون بلطف ورعاية وعدم ظلم كما جاء في سورة الطلاق لكن لا يجاوز هذا الأمر حده... لا ينبغي أن يسعى الإنسان في ابتغاء مرضات زوجاته حتى قد يقع في تحريم ما أحل الله... فلما حرَّم على نفسه شيئا مباحا جاء العتاب، حتى لا يسير أحد على هذا الطريق ويضل، فالنبي – صلى الله عليه وسلم- في هذا الموضع فعل شيئا مباحا -حرَّم على نفسه شيئا مباحا- ، لكن قد يفعل الإنسان شيئا حراما؛ قد يترك شيئا من الدين أو يترك شيئا من الواجبات، قد يترك الجهاد ابتغاء مرضات زوجاته، قد يترك صلاة الجماعة قد يترك أشياء ابتغاء مرضات زوجاته.

فجاءت سورة التحريم لتضبط هذه العلاقة، تجد دائما القرآن يُحدِث نوعا من التوازن، القرآن يحثك على الاهتمام بالزوجة والأولاد، ثم يقول لك انتبه الزوجة والأولاد فتنة (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) [التغابن:١٥] فالتوازن مطلوب كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) [الفرقان:٦٧].

فبالرغم من أهمية الأسرة وأهمية تربية الزوجة والأولاد وأهمية هذه اللبنة في بناء المجتمع تجد أمرا عجيبا جدا، في آخر آيات في هذا الجزء يوجد إشارة إلى أنه قد يكفر أحد الزوجين – ولاسيما الزوجة- وأن الرجل عليه أن يتبرأ منها، وأن الزوج إذا كفر على الزوجة أن تتبرأ منه ولا يقولان في هذه اللحظة نحرص على رباط الأسرة لأن هناك شيئا أعلى من الأسرة وهو التوحيد، إذًا يأتي ختام هذا الجزء ليضع أولويات... نعم الاهتمام بالأسرة مهم، نعم هي لبنة في بناء المجتمع لكن قضية التوحيد أهم، تقديم رابطة التوحيد أهم من رابطة الأسرة أهم من رابطة العائلة أهم من رابطة الوطن.

تقديم قضية التوحيد قبل كل شيء، لذلك جاء الختام ختام هذا الجزء قال ربنا سبحانه وتعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢))[التحريم:١٠-١٢]

نجد أن هذا الختام ختام عجيب جدًا غير مُتَوَقع، لكن هكذا القرآن يضع التوازن، يحث على الاهتمام بالأسرة، ثم يقول ولكن انتبه هناك أمر فوق كل شيء ، رابطة العقيدة ورابطة التوحيد فوق كل الروابط، لأن هذه الرابطة الأسرية قد تنفسخ إذا ترك أحد الإسلام وأصبح كافرا- والعياذ بالله-. فتأتي هذه السورة – سورة التحريم- تدعو لنوع من التوازن في العلاقة بالزوجة، فلا يقدم مرضاة الزوجة على مرضاة الرب سبحانه وتعالى وأنه يوجد طريقة شرعية لإنهاء العلاقة وهي الطلاق (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا منكن) [التحريم:٥].

إذًا هناك طريقة لإنهاء العلاقة غير الظهار الذي في أول سورة في الجزء – سورة المجادلة- وتجد كيف أن هذا الجزء ارتقى بالمجتمع.

كانت تُنهى العلاقة بطريقة غير شرعية وهي الظهار، ثم جاء الإرشاد إلى إنهاء العلاقة الزوجية بطريقة شرعية وهي الطلاق.

و نقف هنا وقفات سريعة مع خواتيم السورة

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ) [التحريم:١٠]

قد يظن الإنسان بما أنه في أسرة مسلمة ينتمي إليها أو بلد مسلم، يظن أن هذا يكفيه دون أن يقوم هو بالأعمال الصالحة، لذلك اختار الله عز وجل لنا أفضل البيوت ثم ذكر أن الزوجة في أفضل البيوت لن يُغني عنها شيئا إلا العمل فضرب لنا مثلا امرأت نبي، و هو نبي من أولي العزم من الرسل؛ هو نوح عليه السلام-، ثم لوط – عليه السلام-. –

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ) [التحريم:١٠]

العجيب أنها في بيت نبي ولم تؤثر فيها النبوة، ونزول الوحي لم يؤثر فيها.

المرأة يمكن أن ترفض الدين أو تقبل الدين، لذلك جاءت مثلا للذين كفروا ومثلا للذين آمنوا.

و اختار الله – عز وجل– في المثلين امرأة حتى لا يحتج أحد بالمجتمع.

من الممكن أن يقول أحدهم: المجتمع يضغط علي ولا استطيع أن آخذ قرارات فجاءت الآية التي تليها (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) [التحريم:١١]

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ) [التحريم:١٠]

لماذا ضُرب المثل للكفار؟

فقال بعض أهل العلم: حتى لا يحتج أحد من الكفار بالعلاقات والروابط الأسرية بينه وبين أهل الإيمان ، فلا يحتج أقارب النبي –صلى الله عليه وسلم– الذين ماتوا على الكفر–كعمه أبو طالب– لا يحتج بهذه الرابطة الأسرية، وغيرهم أيضا من الذين كانوا يؤاكلون المؤمنين ويزاورونهم، أو بصلة الرحم بين أهل الإيمان و الكفار، فلا يعتقد الكفار أن صلة الرحم هذه تُغني عنه من الله شيئا.

وقال بعض أهل العلم: حتى لا يعتقد الكفار أن مجاورة البيت الحرام تغني عنهم من الله شيئا.

فإن النسب لا ينفع، والأرض لا تنفع، والاقتراب من المقدسات وأنت على الكفر لا ينفع... الذي ينفع الإنسان هو عمله... قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه". وهذه الجملة من الحديث جاءت في ختام حديث مليء بالأعمال الصالحة، بدأ النبي صلى الله عليه وسلم "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنها بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماًً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه "[٣] هذا حديث في صحيح مسلم.

[٣] - [عن أبي هريرة:] "مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيامَةِ، وَمَن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، واللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ له به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ، وَما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ، وَيَتَدارَسُونَهُ بيْنَهُمْ، إلَّا نَزَلَتْ عليهِمِ

عليك بهذه الأعمال، فهي التي ترفع الإنسان، أن تعين أخاك، أن تتعلم، تطلب العلم، أن تقرأ القرآن وتتدارس القرآن؛ كل هذه الأعمال هي التي ترفع الإنسان يوم القيامة، لا مجرد النسب، فقال في ختامها النبي صلى الله عليه وسلم "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه". النسب هنا لا ينفع.

فذكر الله عز وجل لنا أعلى نسب: زوجة نبي، وأن هذه العلاقة الزوجية لم تغن عنها من الله شيئاً (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) [التحريم:١٠].

والعجيب أن الله تعالى قال: (تحت عبدين) ولم يقل تحت نبيين... حتى لا تخون أي امرأة زوجة لعبد صالح، فيكون المثل يصلح لكل أهل الايمان،وأيضا الله –عز وجل– رفع نبيه نوح ولوط بسبب العمل الصالح، وأن الله عز وجل ليس بينه وبين أحد نسب، ولكن بالعمل الصالح... فقال الله –عز وجل–: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ((١٠)).

امرأت نوح استجابت لضغط المجتمع، تركت نفسها مع الجم الغفير من الناس، الجم الغفير من الناس كفر، فتركت التمسك بالنبوة وبالعمل الصالح وتبعت ما سار عليه المجتمع، وكذلك امرأت لوط، سيدنا نوح آمن معه قليل... أما سيدنا لوط كان مستضعف.

فهاتان الزوجتان تبعتا المجتمع، لذلك أمر خطير جداً عند النساء أنها قد تستجيب لضغط المجتمع... لذلك أكثر اتباع الدجال من النساء، وأكثر أهل النار من النساء؛ لأنهن يكفرن العشير ويكثرن اللعن؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهن تصدقن.

الدجال يأتي بالزخرف والزينة والفتنة والانبهار، هذا أكثر شيء يؤثر في النساء لأنها تستجيب لضغط المجتمع، لا تستطيع أن تصبر على الزخارف (أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) [الزخرف:١٨] هي لا تستطيع أن تصبر على الزخارف،

لكن هل معنى هذا أن كل النساء هكذا؟

=السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ. غيرَ أَنَّ حَدِيثَ أَبِي أُسامَةَ ليس فيه ذِكْرُ التَّيْسِيرِ على المُعْسِرِ".
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٦٩٩ • [صحيح]

لا؛ ولذلك ضرب الله عز وجل مثلاً لملكة تركت كل هذا الملك والزخرف لله سبحانه تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) [التحريم:١١].

فامرأة نوح رغم أنها لم تكن ملكة، وامرأة لوط لم تكن ملكة لكنها استجابت لضغط المجتمع، "فَخَانَتَاهُمَا".

ما معنى خانتاهما؟

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: « لم تزن امرأة نبي قط » وقال قتادة: « ما بغت امرأت نبي قط»

فما معنى فخانتاهما ؟

قال: الخيانة هنا أنها كانت تدل قومه المشركين عليه، أتباع نوح –عليه السلام– كانوا يأتون إليه مستخفين ليتعلموا الدين، فكانت امرأة نوح تطلع على الذين يأتون ليتعلموا الدين من نوح –عليه السلام–، وتذهب إلى قومه لتخبرهم بهؤلاء الناس، وهذه هي الخيانة (تعمل كمخبر) " فَخَانَتَاهُمَا " كانت تدل قومها على هؤلاء الصالحين... كذلك لوط يأتيه الضيوف، وكان يستقبلهم سراً، لأن قومه يفعلون الفاحشة فكانت تدل علي الاضياف.

فالخيانة في الدين، الخيانة في الأخلاق،خيانة عظيمة عند الله عز وجل؛ لذلك قال الله –عز وجل–: (لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) [الأنفال:٢٧]... سماها الله خيانة.

فمن يُعرض عن الدين في وقت الدين يحتاج إليه هذه خيانة، الذي يطعن الدين خيانة، طعن الدين من الخلف خيانة، فسماها الله خيانة (فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ).

قالوا ما معنى ادخلا النار مع الداخلين؟ طالما هي في النار!

أي أنها لن تعامل في النار معاملة خاصة لأنها زوجة نبي... تدخل في زمرة الداخلين، فلن يُقال في النار هذه امرأت نوح فتُعامل معاملة أخف، وهذه امرأت لوط فتعامل معاملة أخف، أبداً (ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ). أي في زمرة الداخلين تُعاقب بنفس العقاب؛ لأنها كانت من الكافرين وأضافت للكفر

الخيانة، خيانة الدين ليست خيانة الزوج فقط، بل خيانة الدين: خانت الله –عز وجل– ورسوله... لذلك نهانا الله –عز وجل– عن ذلك وقال: (لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) [الأنفال:٢٧]

ثم قال الله – عز وجل – (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) [التحريم:١١]

فضرب الله مثلا للكفار امرأة لأنها كفرت، ولكن أيضا للمؤمنين !!!... لم يضرب الله المثل للمؤمنات بامرأت فرعون ولكن قال تعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا) فضرب الله المثل لكل أهل الإيمان مثل هذه المرأة (امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) [التحريم:١١]

طوال الجزء الثامن والعشرون وأنت تسمع أهمية المجتمع المسلم ... أهمية البيئة الإيمانية... أهمية الأسرة المسلمة في بناء الإيمان، وأن الإنسان يحتاج أن يقترب من المجتمع المسلم، وأنه يجب عليك ألا تترك المجتمع المسلم (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) [الجمعة:١١] ، ويجب عليك أن تتمسك بهذا المجتمع المسلم حتى يصح إيمانك ولكي تزداد إيمانا... ثم أخبرنا الله – عز وجل – أن المنافقين يحرصون على هدم هذه البيئات الإيمانية فقال الله – عز وجل – (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا) [المنافقون:٧]

قد يحتج أحد من الناس ويقول: أنا لا أستطيع أن أحافظ على إيماني لأني لا أعلم مجتمع مسلم، لا أعلم بيئة مؤمنة، فتقول له ابحث يقول لك لا أجد، فبما أنني لا أجد بيئة إيمانية، ولا أعلم مكان مجتمع صالح إذًا هذا عذر لي لأفعل الموبقات وأن أكون والعياذ بالله بعيدا عن شرع الله عز وجل، فضرب الله مثلا لمن يحتج بهذا، فنعم البيئة الصالحة تجعل الإيمان في زيادة، لكن من لم يجد هذه البيئة لا عذر له، فليرتبط بالله – سبحانه وتعالى – ، فضرب الله – عز وجل – مثلا للذين ءامنوا امرأت فرعون حتى لا يحتج أحد بالمجتمع المؤمن، *ومن الذي كان بجوار امرأت فرعون؟!*

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ) [التحريم:١١]

لم يقف بجوارها أحد، هي آمنت سراً، بعضهم قال أنها آمنت عن طريق ماشطة ابنت فرعون –الخادمة– وكان الإيمان ينتشر سرا في القصر الفرعوني، فلما آمنت وعلم بذلك فرعون فعذبها، وقالوا أنه في البداية هددها بنزع ملكها، هددها أنه سينزع منها الملك والقصر والزينة، تخيل، كانت هي الملكة الأولى في المجتمع، ثم تترك كل هذا الأمر... إن ترك الملك والزخارف والزينة والقصر بدون عذاب وبدون حتى

تعذيب بدني هذا أمر عسير جدا وصعب إلا على من يسره الله عليه، لكنها تركت، لم تفكر في ضغط المجتمع ولا ضغط الزخرف ولا كلام الناس ولا عذاب فرعون، لم تفكر في كل ذلك، فكرت في آخرتها، في الجنة، فضرب الله مثلا لأهل الإيمان الذين قد يحتجون بوجودهم اضطراريا في بيئات الكفر... إنهم ليس لهم عذر في ترك الإيمان، والعجيب هذه امرأة تصبر على كلام الناس، تصبر علي ترك القصر، تصبر علي الزخارف، تصبر علي التعذيب... وتجد بعض الناس أو بعض الفتيات لا تصبر علي الحجاب!!!، تقول الناس يسخرون مني!!!، أو بعض الشباب لا يصبر علي الالتزام ويقول المجتمع يسخر مني!!!، أنا أشعر بالغربة!!! نعم؛ طوبى للغرباء، اصبر، هذه الغربة ليست عذراً لترك الدين، قد تكون هذه الغربة سبيلا لرفعة إيمانك، هذا بلاء، نعم... قال ربنا (إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ) [الأنعام:١١٩] فالمضطر فقط له أحكام الضرورة، والضرورة تقدر بقدرها.

فجاء هذا المثل لإشعال جذوة الإيمان بداخل المؤمنين ألا يتركوا إيمانهم مهما تعرضوا لبلاء، ومهما تعرضوا لفتنة، لذلك قال بعض أهل العلم: ضرب الله – عز وجل – للذين آمنوا مثلين: مثل في قوة الثبات علي الإيمان في الفتنة، ومثل في قوة العبادة، هذا هو المطلوب من أهل الإيمان، وهذا هو المطلوب من النساء، كثرة العبادة والثبات أمام الفتن هذا هو المطلوب، فضرب الله – عز وجل – مثلا للذين آمنوا (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [التحريم:١١].

(ونجني) قال بعض أهل العلم ونجني من عذاب فرعون، ومن عمله: أي ومن كفره، هي خائفة أن تعود إلي الكفر، فقبل أن تقول: (ونجني من القوم الظالمين) قالت: (ونجني من فرعون وعمله)، هي تخشى أن تعود للكفر مرة أخرى، "ثلاث لن كن فيه وجد فيهن حلاوة الإيمان" قال – صلى الله عليه وسلم – في آخرها "وأن يكره أن يعود إلي الكفر كما يكره أن يُلقى في النار"[٤] الإنسان يكره الكفر، يكره أن يعود مرة أخرى .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ) [التحريم:١١]

[٤] - [عن أنس بن مالك:] "ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ."
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ١٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (١٦) واللفظ له، ومسلم (٤٣)

هذه اللحظة المهمة في حياة امرأة فرعون، هذه اللقطة التي التقطتها لنا هذه السورة، هذا القول الذي قيل في عز زمن الفتنة... في أوج الفتنة (قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ....) قالوا إنهم جردوها من ملكها وأخذوها ووضعوا الأوتاد الأربعة في يديها ورجليها ووضعوا على بدنها صخرة، فرأت نعيمها في الجنة فنسيت كل هذا الألم، كلما تذكر الإنسان نعيم الجنة نسي المكاره في طريقه إلي الجنة، لأن الجنة حفت بالمكاره، كلما نظر الإنسان إلي نعيم الجنة نسي هذه المكاره التي تقابله في الطريق.

فضرب الله عز وجل لنا هذا المثل والعجيب أن المثل المضروب للزوجة، لزوجة فرعون، وليس مثلاً أم فرعون أو أخت فرعون أو ابنت فرعون، فإذا كان المثل لامرأة فكان ممكن أي أمثلة، لكن الزوجة! هذا الميثاق الغليظ وهي أضعفهن، قال النبي – صلى الله عليه وسلم –" اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم"[٥] أي أسيرات، فتخيل الزوجة، فهي ليست مثلاً الأم فمن الممكن أن يحن أو لها فضل عليه، أو الأخت قد لا يكون له سلطان عليها فتتركه وتذهب، أو البنت مثلا فيخاف أن يؤذيها أو تترك البيت ، لكن هذه الزوجة أشد الروابط، حتي لا يعتذر أحد بأسرته أو بمجتمعه أو بالضغط المجتمعي ...وجاء هذا المثل وبامرأة!...حتى قال بعض أهل العلم: لا تكونوا أضعف من امرأة، لتأتي هذه الآيات لتثبت الرجال قبل النساء.

أسأل الله عز وجل أن يثبتني وإياكم وأن يقينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد –صلى الله عليه وسلم–.

في هذه الآيات التي جاءت في ختام سورة التحريم التي علمتنا: بالرغم من أهمية الأسرة المسلمة وأننا – ولا سيما الزوج– يجب علينا أن نقي أنفسنا وأهلينا النار، أي أنه كما أن رب الأسرة مسئول عن الأسرة وأن يقيهم وأن يبعدهم عن الفتن، فإن ربنا –سبحانه وتعالى– قال في آخر آية قبل ضرب الأمثلة: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [التحريم:٩].
فكما أن من الواجبات الأساسية على رب البيت رب الأسرة أن يصرف عنهم الفتن وأن يصرف عنهم ما يؤذيهم في دينهم، فكذلك يجب علي أمير المؤمنين –من أولى أولوياته– أن يجاهد الكفار والمنافقين،

[٥] -" اتقوا اللهَ في النساءِ فإنهن عوانٍ عندكم"
ابن القيم (٧٥١ هـ)، زاد المعاد ١٧١/٥ • صحيح

وأن هذا الأمر مطلوب منه... يجب عليه أن يحافظ على دين الناس، لذلك أولى الأولويات المطلوبة منه أن يقيم دين الناس. نعم يجب عليه أن يقيم دنياهم لكن لابد أن يقيم دينهم، وعند التعارض يُقدم دين الناس، ومن لم يفعل ذلك نُزِعَ منه هذا اللقب فهو لا يستحق هذا اللقب.

ثم قال ربنا –سبحانه وتعالى–: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا.....(١٠)) و(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا.....(١١))، الناظر في هذه الأمثلة يجد أن تقسيمات الناس لا تخلو من أربعة: إنسان فاسد يعيش في بيئة صالحة، أو إنسان صالح يعيش في بيئة فاسدة، أو إنسان صالح يعيش في بيئة صالحة، أو إنسان فاسد يعيش في بيئة فاسدة. هذا للناظر في تقسيمات الناس بالنسبة للشخص والمجتمع، أي أن الجزء كله عن المجتمع.

أما بالنسبة للأفراد في وسط هذا المجتمع، فقد يكون هناك شخص فاسد يعيش في بيئة صالحة ويصر على الفساد، إذًا هذه البيئة الصالحة لن تنفعه عند الله.

لذلك ضرب الله مثلًا للشخص الفاسد الذي يعيش في بيئة صالحة وهذه البيئة للأسف لم تؤثر فيه لإصراره على الكفر: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ).[التحريم:١٠]

وماذا عن الشخص الصالح الذي تمسك بدينه وعاش في بيئة فاسدة من أفسد البيئات، ليست بيئة شهوات ولا بيئة شبهات ولا بيئة معاصي بل أكثر، فقد كانت امرأة فرعون زوجةً لرجل يقول أنه ربهم الأعلى، أي أنها لم تكن زوجة مثلًا لشخص مشرك عنده شبهات فحسب، بل كانت زوجةً لشخص يَدَّعي الربوبية والألوهية، تخيل في أفسد بيئة! فضرب الله مثلًا للشخص الصالح الذي يعيش في أفسد البيئات، وأنه تمسك بدينه بالرغم من فساد هذه البيئة.

ثم ضرب لنا مثلًا: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) [التحريم:١٢]، قال المفسرون: على نهج أسلافها، أي على نهج أمها وعلى نهج أبيها عمران وعلى نهج زكريا –عليه السلام–، كانت على هذا النهج، كانت من القانتين. فنموذج الشخص الصالح في البيئة الصالحة أنه يزداد صلاحًا على صلاح، الشخص الصالح عندما يوضع في بيئة صالحة يزداد صلاحًا ويكتسب إيمانًا.

أمّا الشخص الفاسد الذي يوجد في بيئة فاسدة فلم يذكره الله، لأن الشخص الفاسد في بيئة صالحة لن تغني عنه بيئته شيئًا، فما بالكم بالشخص الفاسد الذي يعيش في بيئة فاسدة فيزداد سوءًا وفسادًا؟!، لذلك لم يُضْرَب لنا مثال في هذا النموذج، قال النبي –صلى الله عليه وسلم– في آخر آيتين في وصف هاتين المرأتين: "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا..... ، ثم ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنت عمران".[٦]

إذًا المرأة تستطيع أن تقف أمام كل العوائق، تستطيع أن تجاهد وتقف أمام كل الزخارف وضغط المجتمع، فمهما كان عليها من الضغوط تستطيع أن تكون حجرًا أمام فتنة المجتمع؛ قد تكون بابًا للفتنة وقد تكون حجرًا يمنع الفتنة... المرأة قد تكون بابًا للفتنة لذلك في أغلب المواطن التي يُذكر فيها النساء يُذكر معهن المنافقون، لأن المنافق إذا أراد أن يهدم المجتمع يدخل من خلال النساء.

في سورة النساء ذُكر المنافقون، في سورة التحريم ذُكر المنافقون، في سورة الأحزاب ذُكر النساء والمنافقون. في أغلب المواطن التي تُذكر فيها النساء في القرآن يُذكر المنافق، لأن الباب الأسهل لهدم المجتمع هو من خلال النساء، قال –صلى الله عليه وسلم–: "اتقوا النساء فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل..." مجتمع كامل انهار! "إن أول فتنة بني إسرائيل" لم يقل فتنة فلان وفلان، بل فتنة المجتمع "إن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء" [٧] المجتمع ينهار بسبب النساء.

وقيل كما ذُكر في الإسرائيليات–ذكرها الطبري وغيره–: أن موسى –عليه السلام– لما كان مع جيشه وأراد أن يجاهد، القومُ الذين خافوا من مجيء موسى قالوا: إن الحل أن نفتن الجيش عن طريق النساء نرسل البغايا –والعياذ بالله–، فوقعوا في الزنا فحُرِمُوا النصر.

الشاهد أن المرأة قد تكون حجرًا يمنع الفتنة وتُثَبِّتُ البيت والأسرة وقد تكون بابا الفتنة؛ لذلك يتوجب على الرجل أن يوازن: متى يغفر؟ متى يعفو؟ متى يعاقب؟ وأنه يتبع مرضاة الله عز وجل، وأنه كما أمرنا

---

[٦] - [عن أبي موسى الأشعري:] "كَمَلَ مِنَ الرِّجالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ إلّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ، وإنَّ فَضْلَ عائِشَةَ على النِّساءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائِرِ الطَّعامِ."
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٣٤١١ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٤٣١)

[٧] - [عن أبي سعيد الخدري:] "إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها، فَيَنْظُرُ كيفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنْيا واتَّقُوا النِّساءَ، فإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسْرائِيلَ كانَتْ في النِّساءِ. وفي حَدِيثِ ابْنِ بَشّارٍ: لِيَنْظُرَ كيفَ تَعْمَلُونَ."
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٧٤٢ • [صحيح]

الله عز وجل في هذا الجزء برعاية المرأة أيضًا حذرنا الله أنها قد تكون فتنة، هذا التوازن لن تجده إلا في كتاب الله –سبحانه وتعالى–، تجد آياتًا تهيج المشاعر في اتجاه ثم تجد آياتًا تضبط المشاعر في اتجاه آخر حتى يخرج المؤمن من هذا الجزء متزنًا بين أهمية الأسرة وبناء الأسرة والاهتمام بالزوجة والاهتمام بالأولاد والتربية الإسلامية للزوجة والولد، وبين أن يقف عند حد معين إذا اقتضى الأمر.

لذا جاءت سورة الطلاق بعد سورة التغابن، إذا غُبن الإنسان في علاقته مع الناس أي خسر دينه فقد يصل إلي الطلاق، هذا الأمر ليس مع الزوجة فحسب بل في كل العلاقات، إذا غُبِنتَ في دينك بسبب علاقات مع أشخاص فيكون الحل هو الطلاق أو البعد، لأن أغلى ما يملك الإنسان هو دينه.

أسأل الله عز وجل أن يثبتنا على دينه إلى أن نلقاه وأن يرزقنا حسن الختام.

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة،

اللهم ثبتنا على دينك،

اللهم ثبتنا على مرادك منا،

اللهم وفقنا لفعل كل ما تحب وترضى،

اللهم هيء لنا من أمرنا رشدًا،

اللهم إنا نسألك العزيمة على الرشد،

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك،

اللهم اهدنا واهدِ بنا واجعلنا سببًا لمن اهتدى،

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم،

سبحانك اللهم بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وأقم الصلاة.